

## الفصل السادس

### شخصية محمد والعقيدة الإسلامية

" فليست النفس الإنسانية ملكا لأبناء دين واحد ، وليس الكشف عن أسرارها وأغوارها فريضة شرع واحد أو عرف واحد ، وما من شيء يجعل للدين نفسه معنى إن لم تكن النفس الإنسانية ذات معنى وذات قيمة وذات علاقة أصيلة بهذا الوجود أجمع ، فلا يضل معتقد عن هدى عقيدته حين يؤمن بجانب من جوانب عظمتها أو جانب من جوانب النبل والإرحمة .... "

◻ عباس محمود العقاد



تنجح الدعوات نجاحا منقطع النظير إذا كان هناك تطابق أو تماثل أو تماثل بين العقيدة وشخصية صاحبها . هنا نجد الشخصية صورة صادقة من صور العقيدة ، كل ما هو موجود فى العقيدة من قيم ومبادئ ومعايير حلقية ونفسية وعقلية ، تجده ماثلا وتجد صده فى الشخصية ، فقد تشبعت الشخصية وامتلات بتلك العقيدة ، أو أن العقيدة تحسدت وتحلقت فى شخص إذا الإنسان فأنت واجد كل ما فى العقيدة فى تلك الشخصية ، أو واجد كل ما فى الشخصية فى تلك العقيدة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أن هناك اتفاقات وتوافقا دقيقة بين الشخصية ومتطلبات هذا الزمان والعصر ، هنا - أيضا - نجد تطابقا وتلازما بين الشخصية والزمان . وكأن الشخصية لم تخلق إلا لهذا الزمان ، أو كأن الظروف والأقدار لم تهين إلا لتناسب تلك الشخصية ، أو لعظمة وسمو ورقى الشخصية فإن كل زمن هو زمنها ، لأن كل الأزمان تفخر أن تنتسب إليها . وكان الاثنين - الشخصية والزمان - كأننا على موعد أو قدر . كل منهما كان ينتظر حتى تنهيا وتتجمع وتتفق الأحوال والظروف فيلتقيا ويتولد من هذا اللقاء تغيير وتبدل فى العالم والإنسان . وجميع الدعوات تجتمع لها هذان العنصران . ويتوقف نسبة ومدى نجاحها على مدى التوافق والتماثل بين الشخصية والعقيدة من ناحية والشخصية والزمان من ناحية أخرى .

ونستطيع أن نقول إن جميع الدعوات التى عرفتها الإنسانية وسجلتها نجحت بصورة أو بأخرى أو بنسب متفاوتة ، ولكن جميع الدعوات لم يكن هناك تطابق بين الدعوة وشخصية صاحبها ، كما أنه لم يكن هناك اتفاق وتوافق بين تلك الشخصية وزمنها كما كان الأمر مع العقيدة الإسلامية وشخصية محمد ، لذلك نستطيع القول إنه لم يقدر لأي دعوة أن تنجح كما نجحت الدعوة الإسلامية، إن أي دعوة لم توفق فيما توقعته وطلبته كما نجحت الدعوة الإسلامية .

أما من ناحية التطابق بين العقيدة وشخصية محمد ، فإن محمدا خلقا  
 وخلقاً ترجمة صادقة وحقيقية وواقية لتلك العقيدة ، تلازم بين الاثنين وكأنهما  
 شيء واحد ، فأنت إذا أمنت بمحمد فقد أمنت بالله . وإذا أنت أظعت الرسول  
 فقد أظعت الله ، وإذا أظعت الله فقد أظعت الرسول ؛ لأن ما يقول به محمد قد  
 تلقاه عن الله ، وإيمانك بالله متضمن إيمانك بالرسول ، هنا الفروق الدقيقة امحت  
 بين العقيدة والشخصية ، فإذا كانت العقيدة تعلق من شأن العقل والفكر فمحمد  
 أول من يعلو من هذين الأمرين ، وإذا كانت العقيدة واضحة ومباشرة وبسيطة، فإن  
 شخصية محمد واضحة وبسيطة ومباشرة ، يحكم بذلك كل من اتصل به وتعامل  
 معه ، وإذا كان في العقيدة تصور واضح وشامل وكامل لنظرية في الكون والوجود  
 وخالق الكون والوجود ، فإن أفعال وتصرفات وأقوال محمد تبرز وتؤكد وتؤصل هذا  
 التصور وهذه النظرية . " وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا  
 جرى كذلك باختبار - رسولها - ﷺ - إنسانا تتمثل فيه هذه العقيدة بكل  
 خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها ، ويكون هو بداته وحياته الترجمة  
 الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها ، إنسانا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها  
 . ضليع التكوين الجسدي ، قوى البنية ، سليم البناء . صحيح الحواس ، يقظ الحس  
 يتذوق المحسوسات تذوقاً كاملاً سليماً وهو في ذات الوقت ضخم العاطفة حتى  
 الصلع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، منفتح للتلقي والاستجابة . وهو في  
 الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر فسيح الأفق ، قوي الإرادة ، يملك نفسه ولا  
 تملكه ... ثم هو بعد ذلك كله ... النبي ... الذي تشرق روحه بالنور الكلي ، والذي  
 تطبق روحه الإسراء والمعراج ، والذي ينادي من السماء ، والذي يرى نور ربه ، والذي  
 تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر ، فيسلم  
 عليه الحمى والحجر ، ويحن له الجذع ، ويرتجف به أحد - الجبل! - ثم تتوازن في

شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي احبب لها ٧٣ .

هذا التوازن بين شخصية محمد والعقيدة الإسلامية لم يحدث هكذا بدون معالجة ، ومجاهدة ومشقة ومعاناة من محمد ، وإنما بدل كل ما فى وسعه واستثمر واستخدم كل طاقاته لتكون شخصيته متوافقة ومتشربة للعقيدة ، لأن جانب كبير من شخصية محمد من صنعه هو ، من إرادته وتصميمه وعناده وعزته وكبريائه محمد لم يجد نفسه هكذا - بدون إرادة منه - متفقا ومتوافقا مع العقيدة ، الأمر فى حاجة إلى نظر وتفكر ، وتدبر ، الأمر فى حاجة إلى مجاهدة ومكابدة ومعاناة ولا ننكر أن بعد كل ما بذله محمد كان هناك العون الأكبر من الله - عز وجل - ولولا عون الله ما قدر هذا النجاح لمحمد ولا للدعوة .

والمراجعات التي حدثت من الله لنبيه نوع من إرشاد الله لنبيه أن يكون متطابقا مع العقيدة ، مسايرا لمبادئها ، متمشيا مع جوهرها ، ناطقا بلسانها مجسدا قيمها ومبادئها ، ومن تلك المراجعات :

### ○ زواج رسول الله من " زينب بنت جحش " .

حينما قال رسول الله - ﷺ - لزيد بن حارثة : (( امسك عليك زوجك )) لم يكن محمد رسول الله هو الذى يتكلم، ولكنه كان محمد الرجل العربي المحمل بعادات وتقاليد المجتمع العربي الأصيلة .

لم يكن محمد رسول الله هو الذى يتحدث ولكنه الوالد الذى قام بتزويج ابنة عمته (( زينب )) بوليه (( زيد )) ولكن من (( زيد )) ؟ وما علاقة الرسول به ؟ " (( زيد بن حارثة بن شراحبيل بن كعب )) من بني زيد اللات ، خرجت به أمه (( سعدى بنت ثعلبة )) لتزيره أهلها بني معن بن طيئ ، فأصابته خيل من بني القين بن جسر ، فباعوه بسوق من أسواق العرب ، وكان (( حكيم بن حزام بن

٧٣- فى ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد السادس - صفحة - ( ٣٦٠٩ )

خويلد)) هو الذي اشتراه ، وجاءت (( السيدة خديجة )) وهي يومئذ زوج محمد بن عبد الله ، تزور ابن أخيها ، فعزم عليها أن تختار من شاءت من مواليه ، فأخذت (( زيدا )) وعادت به إلى بيتها . ورأه سيدنا (( محمد )) فاستوهبه منها فوهبته له راضية . وكان (( حارثة )) أبوزيد قد جزع عليه أشد الجزع ، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه فى مكة . فانطلق مع أخيه (( كعب )) حتى وقفوا على محمد بن عبد الله فقالا له : (( يا ابن عبد المطلب ، يا بن سيد قومه . أنتم جيران الله تفكون العانى وتطلعمون الجائع ، وقد جئتك فى ابننا فتحسن إلينا فى فدائه ؟ ))  
سألها محمد : أوغير ذلك ؟

قالا : ما هو ؟

أجاب : أدعوه وأخيره ، فإن اختاركما فذاك ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى احتار على من اختارنى أحدا .  
قالا معا : قد زدت على النصفة .  
ودعى زيد ، فعرف أباه وعمه ، وخيره محمد : إن شاء ذهب معهما وإن شاء أقام معه .

فاختار سيده !

وتوسل أبوه فى ضراعة : (( يا زيد ، أنتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك ؟ ))

فتماسك (( زيد )) ليجيب : (( إني قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذى أفارقه أبدا ))

فعند ذلك أخذ محمد بيده ، وقام به إلى الملامن قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا .

ودعي الغلام : زيد بن محمد . وكان أول من أسلم بعد (( على بن أسي طالب )) . وعندما هاجر الرسول إلى المدينة وأخى بين أصحابه كان زيد وحمرة عم المصطفى أخوين " ٧٤

ما فعله رسول الله - ﷺ - كان عادة شائعة بين العرب . وتقليدا راسخا رسوخ الجبال في الوجدان العربي حينئذ . تواترت عليه أجيال وأجيال . " وقد كان العرب في الجاهلية يلحقون بعض الأجنبي بأولادهم ويعطون الدعي جنس حقوق الولد في الإرث وحرمة النسب وغيرهما ، وكانوا أيضا يخلعون أولادهم من نسبهم ؛ فيأتي الرجل منهم بابنه إلى الموسم ويقول " ألا إنني قد خلعت ابني . فإن جر لم أضمن ، وإن جر عليه لم أطلب . فلا يؤخذ بجرائره " ٧٥

إذن أعتبر محمد أن زيدا ابنه .

واتخذ زيد محمدا أباه .

وأقر المجتمع واعترف بتلك العلاقة وشهد على ذلك .

ولكن في الحقيقة أن زيدا ليس ابنا لمحمد .

وليس محمد أباً لزيد .

وإن إقرار المجتمع على ذلك نوع من مصادمة تلك الحقيقة . وشهادته نوع من التزوير .

وما كان الله ليذر المجتمع الإسلامي في مصادمة للحقيقة ، فكان لابد من تصحيح هذا الوضع ، ووضع الأمور في نصابها الصحيح . لأن هذا الأمر يمس قضية الأنساب في الصميم ، وبقاء المجتمع - أي مجتمع - سليما معافيا مرتبطاً بتلك القضية . " فلما كانت السنة الخامسة من الهجرة أراد الله تعالى أن يبطل عادة

٧٤- نساء النبي - د . عائشة عبد الرحمن - صفحة ( ١٦٠ )

٧٥- الفضائل الكبرى في الإسلام - عصر النبي ﷺ - د . عبد المتعال الصعيدي - صفحة ( ٢٧ )

التبني ؛ لأنها عادة ظالمة باطلة؛ إذ لا يصح للرجل أن يكون له حق إرث أقربائه، ثم يأتي بأجنبي عنهم فيجعل له حق إرثه، فيحرمهم منه أو يشاركهم فيه .  
 هذا إلى أن الولد قطعة من أبيه، فلا يصح أن يكون أجنبي عنه ولدا بقول ينطق به لسانه، فما كان قول اللسان ليغير واقعا، أو ليثبت باطلا "٧٦ .  
 لذلك ستنال تلك القضية اهتماما كبيرا من القرآن الكريم، والذي سيحمل العبء الأكبر، والمشقة العظمى هو رسول الله كما سنعرف بعد .

من (( زينب بنت جحش )) ؟

" هي زينب بنت جحش بن رثاب، الشابة الشريفة الحسنة، سليمة بني أسد بن خزيمة المضي، وحفيدة عبد المطلب، وابنة عمه محمد ﷺ .  
 وصفتها الرواية بأنها (( كانت بيضاء سمينة من أتم نساء قريش )) وكانت معتزة بهذا الجمال، كما كانت معتزة بنسبها الرفيع في آل سبئ البشر "٧٧ .  
 شخصية من طراز رفيع حسبا ونسبا وجمالا، وشعور جارف بالاعتزاز بهذا الأصل، وزادها اعتزازا صلتها وقرباتها من النبي . كل هذا عمق وأصل لديها الإحساس بالعزة والكبرياء والشموخ والأنفة، وقد اصطفى زيد بنيران تلك المشاعر والأحاسيس لدى زينب، وقد وضع هذا حينما سأله النبي حينما استأذنه في طلاقها، فسأله عنها فقال : (( لا والله يا رسول الله، ما رأيت إلا خيرا، ولكنها تتعاطم على لشرفها وإن فيها كبرا، تؤذيني بلسانها )) .  
 والأهم من كل ذلك أنها كانت ترى استحقاتها بأن تكون زوجا لرسول الله، يزيكها ويرشحها لذلك صفاتها، وقرباتها للنبي، فقد تزوج النبي ممن هن دونها شرفا وحسبا ونسبا وجمالا وقراة، فلم لا تطمع وتأمل أنه في يوم من الأيام سيدق النبي بابها خاطبا ؟ وتصبح زوجا للنبي .

٧٦- المرجع السابق - صفحة ( ٢٨ )  
 ٧٧- نساء النبي - د . عائشة عبد الرحمن - صفحة ( ١٥٩ )

حينما نقارن بين حقيقة ووضع (( زيد )) ، وحقيقة ووضع (( زينب )) نجد أن الهوة واسعة جدا ، وأن يجمع بينهما برباط الزوجية ، هذا في حد ذاته شيء صعب وعسير ، ناهيك على أنه عجيب وغريب ، ولكن الشيء الوحيد الذي يسوغ هذا الزواج ويجعله سهلا ويسيرا ، وليس بالعجيب ولا الغريب أن زيدا هو (( ابن محمد )) فكونه ابن محمد يزيل كل الفوارق والاعتراضات ، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك . وهنا المعضلة أو هنا الإشكال .

فقد رضيت وارتضت كل الأطراف ، أن يكون زيد ابنا لمحمد ، ومع ذلك حينما وضعنا هذا الاعتبار في محك التجربة سقط سقوطا مريعا ، فقد رفضت (( زينب )) ورفض أهلها (( زيدا )) ولم يشفع له أنه ابن لمحمد ، لأنه في الحقيقة والواقع ليس كذلك ، ولم تستجب (( زينب )) ولم يخضع أهلها لأمر هذا الزواج إلا لأنه أمر قضى به الله والنبي ونزل به قرآن ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (٣٦) الأحزاب: ٣٦

إذن ما حدث بين (( زيد )) و (( زينب )) ليس زواجا في حقيقته ، وإنما هو أكبر وأجل وأعظم وأخطر من رغبة وإرادة تتوافر عند رجل وامرأة وبإبارك تلك الرغبة والإرادة أهل كل من الرجل والمرأة ، إن ما تم كان استجابة لأمر الله - عز وجل - ورسوله - ﷺ - وليس ثمة أمر مع أمر الله ورسوله ، ولكن وإن قبلت (( زينب )) بأمر زواجها من (( زيد )) إلا أنها لم تتخذ زواجا ، بمعنى أن الحب لم يجد طريقا إلى قلب زينب ، وظلت كارهة ونافرة من زيد ، نعم هي استجابت فيما تملكه .. وافقت وارتضت وقبلت ما أمر الله به والرسول ، ولكن أمر الحب للزوج هي لا تملكه ، ولا تملك التصرف فيه ، " فلما سمعت زينب وأخوها بذلك رضيا ب (( زيد )) ، وجعلت زينب أمرها بيد النبي - ﷺ - فأنكحها (( زيدا )) واختارها زواجا ، ولم تكن في قرارة نفسها راغبة فيه ، ولم يكن قد طلبها زواجا

ولكنها إرادة الله تعالى . والحقيقة أنها كانت تراد زوجها للنبي - ﷺ - فلذا اختيرت دون غيرها ممن يضاهاى (( زيدا )) فى نسبه ؛ لكيلا يكون على النبي حرج إذا صارت إليه ، ولتكون لاثقة به إذا طلقها (( ريد )) وصارت زوجها له ، وقد اختير لـ (( زيد )) فى المرة الأولى (( أم أيمن )) وهى مولودة مثله ؛ لأنه يراد أن يكون زوجها له . واحيد له هذه المرة (( زينب )) وهى تعلوه فى النسب ؛ لأنها كانت تقصد لغيره بعد طلاقها منه ، ولم تكن تقصد له <sup>٧٨</sup> .

إذن هذا الزواج منذ اللحظة الأولى كان معلوم المصير ومعروف النهاية وكما يقولون بداية الأمور تنهى عن خواتيمها ، وأنت تستطيع أن تعالج وتدأوى ونقوم كثير من الأمور المعوجة بعض الشيء إلا الزواج . فهذا الأمر يستعصى على العلاج والمداواة والتقويم ، لأن الأمر ليس بيد أحد إلا الله تعالى ، " ودخل بها (( زيد )) بعد ذلك . ولكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على حبه ؛ لأن الحب من صنع الله تعالى وليس من صنع البشر ، والزواج إذا لم يكن معه حب لا تحصل به ألفة بين الزوجين ؛ ولهذا لم يلبث (( زيد )) و (( زينب )) أن ساءت عشرتهما لأنها كانت تتعالى عليه بنسبها ولم يكن يطيق ذلك منها " <sup>٧٩</sup> .

كانت تتعالى عليه بنسبها .

وهو لم يكن يطيق منها ذلك .

إذا لم تستطع العلاقة الزوجية أن تسحو أو تخفف من حدة ما كانت تشعر به (( زينب )) من جفوة ونفور نحو (( زيد )) بسبب الفارق أو المركز الاجتماعى أو حسنها وأصلها .

ولم يستطع ولم يطق (( زيد )) منها هذا التيه والفخر والتكبر والتعالى عليه .

٧٨- القضايا الكبرى فى الإسلام - د . عبد المتعال الصعدي - صفحة ( ٢٩ )

٧٩- المصدر السابق - صفحة ( ٢٩ )

وهذا - فى حد ذاته - ينفى تفسير البعض أن إقدام الرسول على تزويج زيد بزینب إنما كان مقصد الرسول تذويب الفوارق بين الموالى والأحرار ، ومحو المسافات بين طبقات المجتمع الإسلامى ، لىبقى معيار التفاضل بين الناس هو تقوى الله ، نعم هذا مقصد من المقاصد الإسلامیة - وهو من أنبل وأشرف المقاصد - ومسعى من أجمل مساعى الرسول ، ولكن هذا لا يتم ولا يكون بأن نوقف ما لا سبیل إلى توفيقه ، أو أن نجمع ما لا حيلة لنا فى تجميعه ، فهذا نوع من التعسف والتعنت ، وتبسيط مخل للقضية ، بأن نزوج بنات الطبقة الشریفة أو العلیا أو التى تظن أنها قد حازت من المكرمات والفضائل ما يجعلها ذات وضع واعتبار فى المجتمع ، من أبناء الطبقة الأقل فى ذلك أو الأفقر ، وبذلك تمحى الفوارق الطبقيّة فى يوم!! .

كل هذا لم یغب عن ذهن رسول الله ، فهو يدركه تمام الإدراك ، ويفهمه كامل الفهم ، وأن أمر هذا الزواج وراءه شيء یمس بنیان المجتمع الإسلامى فى الصميم ، ويتعلق بالعقيدة الإسلامیة فى العمق . لقد تم الزواج ، وباقى أن تظهر الحكمة من ورائه . تلك الحكمة التى ستتبدى شيئا فشيئا ، وتظهر بجلاء ووضوح مع تصاعد الأزمة بين الزوجین ووصولهما إلى مأزق لا بد من الخروج منه بأى صورة من الصور .

• وكان الرسول - ﷺ - یعلم ما يحدث بين زيد وزینب من منازعات وخلافات ، بدأت فى البداية بسيطة هیئة ، شأن أى خلافات ومنازعات بين زوجین ، ثم بدأت تأخذ طریقتها إلى التعقيد والتعسر ، وحينما أیقن ( زيد ) باستحالة الاستمرار ، ذهب إلى رسول الله يستأذنه أن یطلق (( زینب )) .

هنا بعد إنساني ینبغى ألا نغفله ، وهو وصول (( زيد )) إلى قرار الطلاق فهو یعلم درجة القرابة بين زینب والرسول ، ویعلم أن هذا الزواج قد تم برغبة الرسول وعن أمر الله ، وأن هذا الزواج قد منحه الكثير من الامتیازات

والصلاحيات فقد انتسب انتسابا حقيقيا إلى عائلة النبي ، فهذا مكسب أدبي ومعنوي ، لا أحد ينكره . ولا زيد نفسه ، وإن الطلاق سيعصف بكل تلك الأمور والأهم أنه قد يغضب الرسول . والراجع أن فرار الصديق لم يصل إليه ... يوم ليلة وإضا استغرق الأمر وقتا ، وأنه حاول كثيرا أن يتحمل الوضع ولكنه لم يستطع وحاول أكثر أن يجد مخرجا من هذا المأزق ولكنه لم يجد . ولا نستبعد أن (( زينب )) هي الأخرى قد حاولت أن تصبر وتحمل هذا الوضع بكل ما فيه من مشقة ومعاناة نفسية وعصبية ولكنها لم تطلق ، ولم يعد لديها طاقة وقدرة لتحمل المزيد . وكذلك لا نستبعد أن يكون قرار الطلاق والوصول إليه قد تم بالاتفاق بين الاثنتين (( زيد )) و (( زينب )) فهما الاثنان فى مأزق وأزمة والطلاق يمثل - للاثنتين - خروجاً من هذا المأزق وتلك الأزمة . فلم نستبعد أن يكون الاثنان قد وصلا إلى قناعة ، وتراضيا بهذا الأمر ؟

حتى ولو لم يصلا إلى اتفاق على هذا الأمر فإن هذا الحل يرضى الطرفين ويخرجهما من مأزقهما .

وما كان لزيد أن يشرك الرسول فى هذا الأمر ، أو يستأذنه فى الطلاق إلا بعد أن وصل إلى قناعة ويقين باستحالة استمرار العلاقة الزوجية ، وهذه القناعة وهذا اليقين لا يصل إليه الزوج إلا إذا علم أن الطرف الآخر له نفس الرغبة فى الفراق ، إذن بقاء العلاقة الزوجية مع توافر كل تلك الأمور نوع من العنت والحرَج وعبه الكثير من المشقة والمعاناة ، بل والعذاب . إذن العلاقة الزوجية انتهت وانفصم عراها بين الاثنتين ، باقٍ شيء واحد هو الإعلان عن هذا الأمر للأخرين وكان أول هؤلاء هو رسول الله - ﷺ - وتبين للرسول فى هذه المرة عزم وتصميم (( زيد )) على الطلاق ، وأنه لا رجعة عنه ، هنا يتدخل الرسول فى تلك العلاقة وقد أظهر له زيد نيته ، فيراجعه ، وطلب منه ناصحا الحفاظ على تلك العلاقة ، إما أنه قال ذلك من منطلق بشريته التي كانت تنصدر الموقف فى تلك اللحظة ، أو قال

ذلك ليعرف إذا كان هناك في نفس زيد بقية من رغبته في استمرار تلك العلاقة بغض النظر عما يعرفه رسول الله بشأن ما يتعلق بمصير تلك العلاقة . وما سوف يترتب عن فصح عراها ، أو شفقة على ما سوف يجلب على (( زينب )) من ألم وإحساس بالهوان ، فمهما كان الطلاق حلا لمازق إلا أنه يسبب جرحا للمرأة ، وفي الحالتين - الزواج والطلاق - بالنسبة لزينب فقد ظلمت .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِيكَ يُبَيِّنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَيُحِبُّهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ يَجِيئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلنَّبِيِّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا أَوْ مَبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِبًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَصِرَاحًا مُّبِينًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعَا أَدْنَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴿ الأحراب ٣٧ - ٤٨ ﴾

والآيات الكريمة تعرض أكثر من فصية :

أولا : قول رسول الله لزيد ( امسك عليك زوجك )

وشيء طبيعي ، وشيء منطقي ، والبادرة الأولى التي تصدر عن النبي - مع وضع الاعتبارات السابق ذكرها في الحسبان - أن يقول : امسك عليك زوجك واتق الله .

وإن لم يقل ذلك ، فعدم قولها لا يتسق مع شخصية محمد ، وقولها يتفق تمام الاتفاق مع شخصيته العظيمة ، لقد قالها وهو يعلم أن زواج زيد من زينب ليس زواجا عاديا ، إنه يخفى وراءه أمورا كثيرة ، وهو يجمع بين طرفين مختلفين ومتناقضين ، وكل منهما غير كفو للآخر ، (( زيد )) من الموالى ، و(( زينب )) من أشرف قريش نسبا .

إذا كان الزواج يستدعى القبول والإيجاب ، فإن عنصر الإيجاب لم يكن متوافرا ، فزينب وأخوها قد رفضا - فى البداية - هذا الزواج ، ثم انصاعا حينما نزل فى هذا الأمر قرآن .

**ثانيا : ما أخفاه الرسول فى نفسه وأبداه الله تعالى .**

ليس كل ما يعرف يقال ، حتى لو أراد الإنسان قول ما يعرفه فقد يتردد كثيرا ، فهو يتحسب لأمر كثيرة ، وقد يرى أن هناك حرجا فيما يقوله ، أو أن مركزه ووضعه بالنسبة للآخرين يمنعه ، أو أن وضع الآخرين بالنسبة له يضع على قوله بعض المحاذير ، أو أن ما سيقوله قد يتير جدلا ولغلا حوله ، أو أن ما يقوله يتعلق بأمر شديدة الحساسية ، لذلك فهو يؤثر الصمت ، أو ينتظر ويحاول تجميد الموقف ككل ، أو تحميد موقفه هو من القضية ، إلى أن تتسدى وتظهر أمور ، أو تتدخل عناصر أخرى ، ترفع الحرج والعنت ، وتعفيه من هذا الأمر .

فى البداية ذهب رسول الله - ﷺ - إلى ابنة عمته (( زينب )) خاطبا إياها لابنه (( زيد )) ، طنت (( زينب )) إن الرسول يخطبها لنفسه ، وإذا بها اكتشف أنه يريد لها لزيد ، تغضب ويفضأ أخوها ويرفضا (( زيد )) ، وإذا بالوحي ينزل على رسول الله ، فتخضع وتنصاع زينب وأخوها لقضاء الله ورسوله . ويتم الزواج ، ولولا ما نزل من قرآن لتمسكت زينب بموقفها ، رغم أن الرسول قد زكا زيد وعدد فضائله ومكارمه ، ولكن الذي دفع رسول الله ليطلب زينب لزيد هو أنه ابنه ، ولكن هذا الاعتبار لم يكن له قيمة عند زينب وأخيها ، فكل

ما فعله رسول الله لزيد لم ينس أحدا أنه ليس ابنا لحمد ، وقضية النسب والمصاهرة تستدعي الأصول وبصفة خاصة في المجتمع العربي ، والناس قد يجاملون ويتساهلون ويتسامحون إلا فيما يتعلق بمسألة النسب والزواج ، فهنا الأصل له الكلمة العليا والفصل ، وليس أي شيء آخر ، أو قل إن الحقيقة هنا تفرض واقعها بكل قوة وإقناع ، فأنت لا تستطيع أن تأتي بشخص وبكلمة منك وبموافقة المجتمع وشثيا مع التقاليد أن تجعل هذا الشخص ابنا لك . فأنت قد أخذت حق الأب الحقيقي ، وفي نفس الوقت أخذت ما ليس بحقك وفي نفس الوقت عارضت الحقيقة وتصادمت مع الواقع ، وتحاصمت مع المنطق !!

وقد أظهر القرآن الحكيم تلك القضية بكل جلاء في بداية سور ( الأحزاب ) :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَتَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤١﴾ أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٤٢﴾ الأحزاب : ٤-٥

كل هذا تجمع للنبي ، ونتيجة زواج زيد بزینب دفعت الأمور في مدارها الطبيعي والواقعي ، أن زيد لابد أن يطلق زينب . أو أن زينب لابد أن تطلق من زيد وإذا طلقت (( زينب )) ابنة عمته فما هو وضعها بين الناس ؟

لقد جرحت مرتين - في عرفها ومنطقها - مرة حينما تزوجت . ومرة حينما طلقت . وأحس رسول الله أنه مسئول عن هذا الأمر ، ومن غير رسول الله أقدر وأكفأ لتضميد جرح زينب . ولن يكون هذا إلا بالتزوج من زينب . ولكنها مطاعة ابنه ، لا ليس ابنه ، فهو ليس من صلبه . وقد أبطل الله النبي . ولكن تلك العادة متأصلة في كيان المجتمع العربي ، وما سار عليه المجتمع أجيال فمن العسير الاقلاع عنه . الأمر في حاجة إلى وقت طويل ، والأهم إلى تجربة حية . إلى واقع

يلمسونه ، من شأنه أن يزحزح أو يبدد هذا الرسوخ للعادة في الوجدان العربي ويرفع العنت النفسي والمشقة إذا أقدم الناس على شيء كانوا يحربونه على أنفسهم ، وهو ليس بحرام ، بل الحرام هو ما تعودوا عليه أجيال وأجيال ، ومن غير رسول الله - ﷺ - يتولى فعل ذلك . ؟ فإذا فعل الرسول ذلك - وهو لابد فاعله - رفع عن الناس الحرج والعنت والمشقة ، وأعطاهم الجبر والقوة والجرأة والشجاعة لإبطال تلك العادة المتأصلة الراسخة ، إذن ليتزوج رسول الله (( زينب )) . نعم ستكون صدمة للمجتمع الإسلامي وقد تحدث رجة بين المسلمين ، دعك من هؤلاء فقد يتقبلون الوضع بالرضوخ والتسليم ، ولكن هناك المنافقين ، أيضا المرجفين في المدينة ، والكافرين ، ومن لم يستقر - بعد - الإسلام في قلبه ، والمتربصين بالرسول وبالإسلام ، كل هؤلاء ماذا سيقولون ، وماذا سيكون موقفهم ؟  
الأمر معقد للغاية ، وحساس للغاية ، وخطير للغاية .

إذن لينتظر الرسول لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا " ولكن النبي كان يعلم هذه القضية من أولها إلى آخرها ، ويعلم أن الله لم يأمر (( زينب )) أن تتزوج (( زيدا )) على غير رغبتها إلا ليطلقها فيتزوجها هو بعده ، فكيف يكون له هذا الشأن في القضية ثم يتولى فيها الحكم ، وعمله شريعة تتبع سنة يأخذ بها الناس ؟ فإذا حكم فيها وله فيها هذا الشأن لم يتحرج القضاة بعده أن يحكموا في القضايا التي يكون لهم شأن فيها ، فيتأثروا في الحكم بما لهم فيها من مصالح ، ويحكموا فيها بما تقضى به مصالحهم ، لا بما يقضى به الحق الذي يجب أن يحكموا به ... هذا وللنبي - ﷺ - أعداء - من المنافقين وغيرهم - خشي أن يعلنوا عليه في ذلك الحكم ، وأن يزعموا أنه إنما طلق (( زينب )) من (( زيد )) ليتزوجها ، وأنها حليلة ابنه ، فلا يحل لها أن يتزوجها بعده ، وكذلك خشي على (( زيد )) أن يقوم بنفسه شيء ، وأن يوسوس له الشيطان فيظن به سوء .

لهذا كله أمسك النبي - ﷺ - في هذه القضية ؛ ليقضي الله تعالى فيها أخيرا كما قضى فيها أولا ، وهذا هو ما يسمى الآن ( ( تنحي القاضي عن النظر في القضية ) ) " ٨٠

إذن ما أخفاه الرسول كان دافعه الحرص أو الحذر أو التوجس لما يكون من رد الناس على تصرفه ، من منطلق بشري محض ، لم يكن هناك أمرا صريحا من الله ، ولم يتنزل الوحي على الرسول ، وإلا ما تأخر أو تواني الرسول عن إبلاغ هذا الوحي وإعلان هذا القرآن على الناس ، مهما كانت العواقب والنتائج ، فهو يبلغ ما أوامر بتبليغه بغض النظر عن أي شيء آخر ، وعتاب الله عز وجل - لرسوله - ﷺ - يرجع إلى هذا ، فطالما يا محمد أن هذا الفعل أنت مقتنع به ، ولا يتصادم مع نص من الشريعة ، بل هناك نص يؤيد ما ستفعله ، وطالما ما ستفعله يخرج زيد وزينب من مأزقهما ، وفيه تضמיד لجرح ابنة عمك ، فلم تنتظر ، ولم تجمد الموقف ؟ " وهذا الذي أخفاه النبي - ﷺ - في نفسه ، وهو يعلم أن الله مبدية ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله ، ولم يكن أمرا صريحا من الله ، وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله ، ولجهر به في حينه مهما كانت العواقب التي يتوقعها من إعلانه ، ولكنه - ﷺ - كان أمام إلهام يجده في نفسه ، ويتوجس في الوقت ذاته من مواجهته ومواجهة الناس ، حتى أذن الله بكونه ، فطلق زيد وزوجه في النهاية ، وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد ، لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن محمد لا تحل له ، حتى بعد إبطال عادة التبني في ذاتها ، ولم يكن قد نزل بعد إحلال المطلقات الأعداء ، إنما كان حادث زواج النبي بها فيما بعد هو الذي قرر هذه القاعدة ، بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار " ٨١

٨٠- القضايا الكبرى في عصر الإسلام - د عبد المتعال الصعيدي - صفحة ( ٣٠ )  
٨١- في ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد الخامس - صفحة ( ٢٨٦٩ )

ثالثا : قرار زيد الأخير والنهائي ، وموقف النبي .

حرصت الآيات الكريمة أن تظهر موقف زيد من زوجته بما لا يدع مجالاً للشك في أي موقف يتخذه النبي ، وهذا يظهر في ( فلما قضى زيد منها وطرا ... )  
"والوطر : الحاجة . وقضاء الوطر : بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشيء . يقال :  
قضى فلان وطره من هذا الشيء : إذا أخذ أقصى حاجته منه .

والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها . بل صارت رغبته العظمى في مفارقتها " <sup>٨٢</sup> .

الإنسان العادي لا يصل إلى قرار الطلاق إلا بعد أن يستنفد كل سبيل الإصلاح والوفاق بينه وبين زوجته ، فما بالك لو كان الرجل في مقام (( زيد بن حارثة )) الذي اتخذ رسول الله - ﷺ - ابنا له ؟

وما بالك لو كانت زوجته في مكانة ومقام ومنزلة (( زينب )) ابنة عمه رسول الله ؟

وما بالك لو كان هذا الزواج تم وفق قضاء وأمر الله ورسوله ؟

لا شك أن (( زيدا )) لن يصل إلى قرار الطلاق إلا بعد أن تقطعت به كل السبل والطرق والوسائل لدوام هذا الزواج . ولسان حاله يقول أنه استنفد كل ما في طوقه ، وحاول وأعينته المحاولة ، وعالج وأعجزه العلاج ، واستغرق وقتا وجهدا ووصل إلى يقين وإلى تصميم وإصرار ، أنه لا بد من الطلاق . وليس من شك ، أن النبي كان مطلعاً على كل ما يحدث بين زيد وزينب من خلافات ومنازعات ، وإنه كان يعلم - في النهاية - مصير هذا الزواج ، ومع كل هذا قال له ( امسك عليك زوجك )  
وكان محمد - ﷺ - لا يريد أن يتدخل في القضية ، أو يتدخل ولكن بالإصلاح وأن يحاول زيد أن يبقى على العلاقة الزوجية ، أو أن الرسول أراد أن يبرئ ساحته بأنه لا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد بقضية الطلاق . وإن كان يعتبر نفسه -

٨٢- التفسير الوسيط للقران الكريم - د محمد سيد طنطاوي - المجلد الحادي عشر - صفحة ( ٢١٥ )

بصورة أو بأخرى - مستنولا على الأقل أدبيا عن هذا الزواج ، أو أنه كان يعلم ما سوف يقال حينما يتزوج بعد ذلك ، بزینب ، وأن مرضى القلوب ومأفوني العقول سيربطون - بنوع من التعسف والتعنت - بين طلاق زيد من زينب ، وزواج الرسول بها ، وكان سبب طلاق زينب من زيد هو رغبة الرسول في التزوج من زينب ، وليس العكس فلم يتزوج الرسول بزینب إلا بعد طلاق زيد لزینب ، ثم زواج الرسول من زينب ليس لرغبة الرسول الذاتية وإنما كان أمرا من الله كما نصت الآية الكريمة على ذلك ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ في الأحزاب : ٣٧

حتى أن (( زينب )) كانت تتبته فخرا ، أن كل نساء النبي ، النبي هو الذي تزوجهم بإرادته ، إلا هي فالذي زوجها له هو الله تعالى ، وبأمر منه . وطالما بأمر الله تعالى فقد انتفت إرادة الرسول ، وإن كانت أوامر الله يستجيب الرسول لها استجابة مطلقة ، لأنه أوامر بذلك ، ولأن إرادة الله وأوامره هي النافذة ، والفرق بين طاعة النبي لتلك الأوامر وغيره ، إن طاعة النبي لله تكون قلبا وقالبا بمعنى أن كيانه وكل خلية في هذا الكيان مفطورة على طاعة الله ، حتى أن عائشة - رضي الله عنها - قالت حينما علمت بأمر زواج الرسول من زينب ، وإن كان دافعها في ذلك الغضب والخيرة ، قالت : (( وما أرى ريبك إلا يسارع في هواك ))<sup>٨٣</sup> ، فهي تقصد أن الله يستجيب لما تريده وتهواه ، وكان السعادة والفرحة التي يشعر بها الرسول وهو ينفذ أوامر الله ، وهذا الانصياع المطلق ، والاستجابة التامة والكاملة ، كل هذا خيل لعائشة أن الله يسارع في استرضاء الرسول !

٨٣- نساء النبي - د. عائشة عبد الرحمن - صفحة ( ٩٦ )

ولكن أما كان من الأولى تجنيب الرسول لهذا الأمر، وكان أحد من الصحابة نهض بهذا العبء ، بأن يتزوج من مطلقة مدعيه ، بموافقة الله والرسول وينزل الله في هذا قرآنا ؟ وما تارت الشكوك والشبهات من مرضى القلوب في أمر هذا الزواج ؟

أو يكتفى بأن ينزل قرآن يبيح ما كان العرب يحرمونه من قبل ، فقد نزل قرآن في أباحة أشياء كان العرب يحرمونها من قبل ؟

تأتى قوة التحريم ومدى حسمه على قدر قوة وتأصل الشيء المراد تحريمه وليس هناك أقوى من تلك العادة تأصلا في نفوس العرب ، ولن يكون للنص القرآني من القوة والفاعلية والتأثير العميق والفوري ، إلا إذا جسده النبي تجسيدا حيا ومشاهدا وملموسا من المسلمين ، نعم إذا انزل الله نصا قرآنيا محللا زواج مدعي البنوة من مطلقات من كانوا يدعون أنهم أبناؤهم ، فلا شك أن هذا النص كان سيطاع ، شان كل ما أنزله الله على نبيه ، ولكن سيكون هناك - في النفس - حرج وعنت ، أما وقد فعله النبي بنفسه - وليس أحد غيره - وقام به ، فقد رفع الحرج والعنت النفسي عن المسلمين في هذا الأمر . " وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسوله - ﷺ - وقد كانت العرب تحرم مطلقة الابن بالتبني حرمة مطلقة الابن من النسب ، وما كانت تطبق أن تحل مطلقات عملا ، إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة ، فانتدب الله رسوله ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة ، وسنرى من موقف النبي - ﷺ - من هذه التجربة أنه ما كان سواه قادرا على احتمال هذا العبء الجسيم ، ومواجهة المجتمع بمثل هذه الخارقة للألوفه العميق ! " ٨٤ .

" وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة ، حملها رسول الله - ﷺ - فيما حمل ، وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية . حتى ليتدرد في مواجهته

بها وهو الذي لم يتردد في مواجهته بعقيدة التوحيد ، وذم الآلهة والشركاء وتخطئة الآباء والأجداد " ٨٥ .

هنا نجد التطابق الكامل بين العقيدة وصاحبها ، محمد يجسد العقيدة أو العقيدة مجسدة من خلال محمد ، وأول من يطبق القرآن بشكل عملي محمد ومحمد أول تطبيق للقرآن بشكل عملي ، هنا يبرز مفهوم (( القدوة )) ، كأوضح ما يكون ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۚ ﴾ الأحزاب: ٢١

وللتطابق الإنساني بين الرسول والعقيدة فإنه في مرات عديدة أنفذ الله - تعالى - إرادة نبيه حتى لو كانت مخالفة للمراد والمقصد الإلهي ، وذلك يرجع لأمر منهما ،

- ترك الفرصة للنبي والمسلمين ، أن يقارنوا بين مقصدين أو مرادين ، المقصد والمراد البشري ، الذي قصده وأراده النبي والمسلمون ، والمقصد والمراد الإلهي .  
وطبيعي أن يكون المقصد البشري به الكثير من النقص والانحراف ووقتي ومحدود ، وخاضع للظروف والأحوال الملحة ، والتي ربما يكون لها ضرر وأذى على المدى البعيد ، وتخالف وتعارض أساس من أسس العقيدة ، وإن كانت لها نفع وفائدة على المدى القريب ، وتحل أزمة وقتيه وتتيج الخروج من مأزق طارئ .

- الثقة المطلقة فيما يأمر به الله ، حتى لو غابت وأضمرت المقاصد والغايات عن المسلمين ، فأنت لا تستطيع أن تستشف من الأحداث ، أو تكشف لك الأحداث والمواقف ، ما يمكن أن تصل من خلاله إلى التصرف الصحيح لما يتفق ويتسق لروح العقيدة ، في تلك الحالة ما على المسلمين - والنبي - سوى

إطاعة أمر الله فالطاعة في حد ذاتها هي المقصد الأول والأخير ، علم الهدف أو الحكمة أو جهل وبالتالي عدم مناقشة أو مراجعة الأمر .

- أن يعتمد المسلمون على أنفسهم في تسيير أمورهم وتصريف شئونهم مستهدين عقولهم ومسترشدين بفكرهم ، ومجتهدين ما وسعهم الاجتهاد ، أن يصلوا إلى ما ينفعهم في دينهم وأخراهم أولا ، ثم يفكرون فيما ينفعهم في دنياهم في المرتبة الثانية . وإن كان ما ينفع في الآخرة متضمنا - ولا شك - النفع أعظم النفع في الدنيا ، فما له نفع في الآخرة الأجدر أن يكون ذا نفع في الدنيا ، وليس العكس .

- التأكيد على بشرية الرسول ، وأن كل أفعاله وأقواله ليست وحيا من عند الله وأنه في بعض تلك الأقوال والأفعال قد لا يصادف الصواب ولا يصيب الحق ؛ لذلك يجب أن يكون الرسول رقيبا على نفسه ، والمسلمون رقباء عليه .

#### ○ موقوف أسرى ( بدر )

الرأى الذي انتهى إليه الرسول ومعه أغلب المسلمين هو قبول الفداء ، هذا انداء أو الرأى يتفق ويتسق مع شخصية الرسول ؛ لأن الرسول يضع كل شيء في سياقه ومحراه الزمي والنفسي والاجتماعي ، فلم يكن الرسول بغافل عما يعانیه المهاجرون في أول عهدهم بالمدينة ، فهم (( عالة )) على الأنصار . نعم لقد ظهر إبتار الأنصار ، وصور كرمهم وسخائهم الذي صار مضرب المنل ، وأثنى عليهم الله - عز وجل - في كتابه الكريم ، ولكن كل هذا لم يغير من حقيقة ووضع المهاجرين ، وأن هناك غصة في نفوسهم ، فقد تركوا كل شيء وراءهم في مكة فرارا بدينهم واستجابة لأمر رسولهم ، لذلك كان الرسول يترصدها لعير قريش ، يريد أن يزيل من نفوسهم بعض ما يشعرون به ، ويضمد جرحهم ، ويجبر انكسارهم ، وهو ما خرج إلا ليعترض عير قريش بدليل قوله - ﷺ : (( هذه عير قريش فيها أموالهم ، فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها )) .

وتطور الأمر ، وانتهى بالرسول والمسلمين إلى القتال كما هو معروف والكلمات التي تضرع بها الرسول إلى الله قبل بداية المعركة تكشف بجلاء ووضوح عن الشاغل الذي كان يشغل الرسول . يقول الرسول متضرعا : (( اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فأحملهم ، اللهم إنهم عراة فأكسهم ، ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا وما بينهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حملين واكتسوا وشبعوا )) .

إذن حالة المهاجرين لم تغب لحظة عن بال الرسول : " إن الجوع والعري عندما يطول أمدهما يتركان في النفوس ندوبا سيئة ويدفعان الأفكار في مجرى ضيق كالج " <sup>٨٦</sup> .

ومع أن أمور كثيرة دفعت الرسول والمسلمين إلى قبول الفداء ، فإن الر لم يخلص إلى هذا الرأي إلا بعد مشاورة ومراجعة من الصحابة " إذ يروى ابن أبي شيبة والترمذي وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر : يا رسول الله ! قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! كذبوك وأخرجوك وقتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس - وهو يسمع ما يقول - قطعت رحمتك ، فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر وقال أناس : يأخذ برأي عمر . فخرج رسول الله ﷺ فقال : (( إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله يشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام ، قال : ﴿ فَمَنْ يَمَعِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَظْمُورٍ رَجِيمٌ ﴾ إبراهيم: ٣٦ ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام ، قال : ﴿ إِنْ تَتُوبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَقُمْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَافِرُ الْحَكِيمُ ﴾ المائدة: ١١٨

٨٦- فقه السنة - الشيخ محمد الفزالي - صفحة ( ٢٠٧ )

ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشدَّدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ يونس . ٨٨ . ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ﴿٢٦﴾ نوح : ٢٦ . ثم قال عليه السلام : انتم عائلة فلا ينفتلن أحد من الأسرى إلا بفداء أو ضرب عنق . ٨٧ .

إذن ما يتحكم في الأمر هنا هي طباع رجال ونفسيات بشر ، والأمر متأرجح بين الشدة واللين ، هل يكون الرسول مع حزب الذين يميلون إلى اللين ، أم مع الذين يميلون إلى التشدد ؟

وكان من اليسير معرفة أي الأمرين سيختار الرسول ، ويرأي من سيأخذ . "عندما تشاور الرسول مع أصحابه في شأن الأسرى فقد سكنت نفوسهم إلى افتدائهم بالمال . وقد كانت الملاحظة في ذلك هي الجمع بين الرحمة والرفق بالأسرى ، عسى أن يرعوا ويؤمنوا بالله ، والتعويض عما فات المهاجرين من أموالهم التي تركوها في مكة عسى أن يقع موقعاً لديهم ويساعدهم على إصلاح شؤون دنياهم ، وهذا الرأي الذي سكنت إليه نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على مدى شففته على أصحابه ، وهذه الشفقة هي التي جعلت يده صلى الله عليه وسلم ترتفع بالدعاء للمهاجرين لما رأهم لدى خروجهم إلى بدر وإن علائم الحاجة والفقر بادية عليهم (( اللهم إنهم حفاة فأحملهم ، اللهم إنهم عراة فأكسهم وإنهم جياع فأشبعهم ))<sup>٨٧</sup>

ومع أن هذا السياق النفسي ، وما تتطلبه الأحوال والظروف ، ومع ما يتفق مع مكونات شخصية الرسول من الرحمة واللين وما يشير به الفكر والمنطق كل هذا أسير اللحظة ومتقيد بالأحوال والظروف .... إلا أن كل هذا يخالف مقصود الله -

٨٧- اجتهد الرسول - الشيخ عبد الجليل شلبي - صفحة ( ١٠٨ - ١٠٩ )

٨٨- فقه السيرة - د . محمد رمضان البوطي - صفحة ( ١٢٢ )

عز وجل - ومراده ، أن يربي المسلمين عليه . فقد ضحى المسلمون بكل شيء ، وتركوه وراء ظهورهم ، وفروا وفازوا بالدين وحده حينما هاجروا من مكة إلى المدينة ورخص كل غال في سبيل الدين ، وصغر أمر الدنيا ومتاعها أمام أمر الآخرة ، وما أعده الله لهم من رضوان ونعيم ، فما بالهم الآن بعد أن نصرهم على أعدائهم ينظرون وينتظرون الحطام ، بل تصاعد الأمر بهم أن تنازعوا في أمر الغنائم ، " ومن هذا القبيل تسابقهم إلى حيازة الغنائم ومحاولة كل فريق الاستئثار بها . عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي فشهدت معه بدرا فالتقى الناس ، فهزم الله العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون ، وأكب طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وإنا لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا .. نحن نحينا منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فأنزل الله ﷻ يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فِي الْأَنْفَالِ : ١ فقسمها رسول الله بين المسلمين " ٨٩ .

إذن الأمر هنا ليس أمر اتساق مع نفسيات الرجال بعضهم يجنح نحو الشدة والآخر نحو اللين ، وليس الأمر اتساق مع ظروف وأحوال المسلمين ، ولكن الأمر يجب أن يتسق نهايته مع بدايته . لقد باع المسلمون كل شيء في سبيل الله حتى أنفسهم باعوها لله ، وبايعوا الرسول ، أنصارهم ومهاجروهم ، واستشهد منهم من استشهد ، صادقين وعدهم مع الله ، لذلك فمجرد التفكير في أمر الغنائم - في هذا السياق - أمر لا يجوز ، بل إن بعض المفسرين فسر الآية ﷻ مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يُصْعِقَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ الأنفال: ٦٧ ، أي ما كان يجوز للمسلمين أن يبقوا على أحد في ميدان المعركة انتظارا للمن أو الفداء ، وإضا كان يجب قتلهم فلا يبقى من الكفار أسير "وقال ابن جرير في معنى الآية : (( الأسر )) في كلام العرب معناه الحبس فالمعنى: ما كان لنبي أن يحتبس كافرا قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو المن ، فالله سبحانه وتعالى يعرف نبيه أن قتل المشركين الذين أسروهم يوم بدر وفاداهم كان أولى بالصواب من أخذ العديّة منهم وإطلاقهم ، ومعنى (( ينحّن في الأرض )) أي يعظم شأنه ويقلّظ بأن تنم له القوة والقلب فلا يكون اتخاذه الأسرى سببا لضعفه أو قوة أعدائه ، قال الواحدي : الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته ، يقال : قد أثخنه المرض إذا اشتد عليه ، وكذلك أثخنه الجراح والثخانة الغلظة فكل شيء غليظ فهو ثخين " ٩٠ .

إذن كان يجب أن يحسم الأمر أثناء المعركة ، وكل من وقع بأيدي المسلمين من المشركين يقتل ، بحيث لا تظهر مشكلة بعد المعركة . ماذا يفعل بالأسرى ؟ فقتل أسير بعد انتهاء المعركة على أي حالة من الحالات سيثير من اللفظ الكثير وقد يوجب مشاعر ، ويثير أحقادا لا مبرر لها ، بل قد ينقسم الأمر بين المسلمين بشأن هؤلاء الأسرى كما حدث .

أما وقد بدأت المشكلة ، فلا بد أن نصل إلى خاتمتها ، وكانت فرصة أن يعلم الله - عز وجل - المسلمين بطريقة عملية ، ويتجربة نوافرت لها كل العناصر الفعالة ليخرج الجميع بعد ذلك بالعظة والعبرة والدرس ، وإلا فإن الله كان قادرا أن يوحى إلى نبيه أو يلهمه التصرف الواجب والإجراء الحق في شأن أسرى بدر .

وتلك أول معركة للمسلمين ، وقدر الله النصر على عدوهم ، ولكن كان يجب أن يكون هناك نصر في ميدان آخر ، وعلى عدو آخر ، أما الميدان فهو النفس ، والعدو هو حب الدنيا والتكالب على المادة ، لأن هذا من أهم المعارك التي يجب على

٩٠- اجتهاد الرسول - الشيخ عبد الجليل شلبي - هامش صفحة ( ١١٠ )

المسلمين أن ينتصروا فيها وهو جهاد وكفاح وأشق من كفاح السلاح ، " ولكن الحكمة الإلهية لم ترد للمسلمين أن يجعلوا من النظرة إلى المال ميزانا أو جزء ميزان للحكم في قضاياهم الكبرى التي قامت على أساس النظرة الدينية وحدها ، وهم أمام أول تجربة من هذا النوع ، أن يجرى ذلك مجرى القاعدة المطردة فتستولى النظرة المادية على مثل هذه الأحكام التي ينبغي أن تظل متسامية في علياء لا يطولها شيء من أغراض الدنيا على اختلافها ، ومن الصعب لمن سار وراء الدنيا واستطاب مذاقها أن يردد ويفطم نفسه عن مذاقها " ٩١ .

ولكن أما كان الأجدر أن يجنب رسول الله هذا الموقف العصيب والشديد على نفسه ؟

لقد بكى بعدما نزلت الآيات توضح له ما كان يجب عليه أن يفعله .  
يقص علينا ما حدث " قال عمر : فغدوت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر وهما يبكيان ! فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تناكيت لبكائكما ! فقال رسول الله ﷺ :  
للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة . وأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ حَتَّى يَمُوتَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٧ ﴾  
﴿ تُولَا كَتَبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٨ ﴾ الأنفال ١٧ - ١٨

ربما من ضمن العبر والعظات والدروس التي خرج المسلمون وأراد الله - عز وجل - توجيه الانتباه والأنظار إليها أن بينهم رسول بشر ، وإنه كسائرهم ، ففكر ويوازن ويقارن بين الأمور ، ويقرر بناء على ذلك ، وقد لا يصيب قراره المقصد الإلهي بناء على أنه بشر ، وأنه عالج التفكير ، وإن قراره كان نتيجة التفكير والمشاورة لأصحابه . " دللنا هذه الواقعة على أن النبي ﷺ كان له أن يجتهد ، والذين ذهبوا

إلى هذا - وهم جمهور علماء الأصول - استدلوا على ذلك بمسألة أسرى بدر. وإذا صح للرسول أن يجتهد صح بناء على ذلك أن يخطئ في الاجتهاد ويصيب غير أن الخطأ لا يستمر، بل لابد أن تنزل آية من القرآن تصحح له اجتهاده، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن اجتهاده ﷺ قد وقع على ما هو الحق في علم الله تعالى "٩٢". ولكن أليس هذا الخطأ وعدم التوفيق في الحكم، وعدم السداد في الرأي، لا ينال من شخصية رسول الله لا سيما وأن هذا لم يعتَم عليه ولم يدارى، وإنما يسحله القرآن، ويظهر أمره على رؤوس الأشهاد؟

ألا يجعل هذا الأمر المسلمين يشكون أو يرتابون في كل قول أو فعل صادر من الرسول، وبناء على ذلك هم ينتظرون تعقيب من الله على أقوال وأفعال الرسول فيما أن ينزل قرآن يصوب ويسدد رسول الله، وإما لا ينزل قرآن دلالة على توفيق الرسول في القول والفعل؟

الأمر لا يسير على هذا المنطق، فإن المسلمين مكلفون بإتباع الرسول أصلاً.. الرسول أم لم يصب، فهذا الإتياع هم مثابون عليه، والاجتهاد الذي سار عليه الرسول هو أيضاً مثاب عليه، أما الوصول إلى مقصود الله - عز وجل - فلا أحد يعلم بأمر هذا المقصد، وليس الجهل أو عدم معرفة المقصد الإلهي ذنباً يعاقب عليه الرسول، حتى لو فعل خلاف هذا المقصد. إذن هناك امران، الأول اجتهاد الرسول، والمسلمون مكلفون بإتباعه في كل الأحوال، والثواب الاجتهاد وثواب الإساءة الأمر الثاني، عدم قدرة النبي معرفة ما في علم الله - عز وجل - فإن لم يصل إلى مراد الله، فليس عليه وزر، ولا يسمى هذا خطأ، فدا الأمر متعلق بمحدودية علم الرسول وسعة علم الله " قد يستعظم البعض نسبة الخطأ على رسول الله ﷺ متوهمين أن الخطأ هو الإثبات، أو الانصراف، أو نحو ذلك. ينافي مع العصمة النابتة للأنبياء، غير أن المقصود بالخطأ هنا عدم منافقة اجتهاده ﷺ لما هو

٩٢- فقه السيرة - د. محمد رمضان البوطي - صفحة ( ١٧٦ )

الكمال الثابت في علم الله عز وجل ، وهو لا يتناقى مع عصمته ﷺ ، بل هو مناب من الله تعالى عليه ، والناس مكلفون بإتباعه في ذلك ما لم تنزل عليه آية تصرفه إلى حكم آخر يتعلق بعلم الله تعالى . فأما اجتهاده بالنسبة للطرف الأول ، فلا يوصف بالخطأ البتة ، لأن الناس مكلفون بإتباعه على كل حال كإتباعهم لسائر المجتهدين من بعده ، إذ لا سبيل لهم بالاطلاع على الخفي الثابت في علم الله عز وجل . وأما اجتهاده بالنسبة للطرف الثاني أي المعلق بعلم الله عز وجل فخاضع لوصفي الصحة والخطأ ، إذ هو قابل لموافقة ما هو الكمال الثابت في علمه عز وجل ولقد كان عليه الصلاة والسلام يرقى في الكمالات متجاوزا المراحل التي كانت تدوله نقصا وتقصيرا بالنسبة لما ارتقى إليه بعد وكان يستغفر الله من تلبسه بها كاستغفارنا من الذنوب ويقول : إنه ليعان على صدري فاستغفر<sup>٩٣</sup> في اليوم واللييلة سبعين مرة " ٩٣ .

### ○ قضية الأعمى وميزان الرجال .

نفس المنطق الذي كان يحكم قضية فداء أسرى بدر ، هو الذي يحكم قضية الأعمى هنا ، والجامع بين الاثنين هو شخصية الرسول ، والمنطق هو الاحتكام إلى ميزان لتقدير أمور وقضايا معينة ، وهو ميزان حق وعدل ؛ لأنه ميزان مستمد من جوهر الدين وليس مستمد من عرض الدنيا ، ميزان لا تؤثر فيه الحاجات الوقتية الملحة ، ولا يراعى الحالات النفسية العارضة للناس ، ولا أهوائهم وأغراضهم ، لأن تلك الحاجات الملحة والأهواء والأغراض تستنفد وتقضى بأتفه الوسائل ، وتحسب على الإنسان ، لأنه استبدل بها أهدافا أخرى ، فقد ترك الأرقى والأسمى ، وأخذ الأدنى والحقير ، فالمسلمون في أسرى بدر نظروا إلى ما ينفعهم في دنياهم من ناحية وراعوا - إلى حد ما - القرابة والعلاقة التي كانت تربطهم بالكفار ، وما كان لهم أن ينظروا إلى ما ينفعهم أو يصلح حالهم في الدنيا ، وإنما ينظرون إلى ما ينفع دينهم

٩٣- المصدر السابق - صفحة ( ١٧٦ )

ويصلح حالهم في الآخرة ، كذلك كان يجب أن تبت وتقطع علاقتهم بالكفار ، لأن بقاء هؤلاء على الكفر وإصرارهم عليه ، ودخول هؤلاء في الإيمان وتمسكهم به قطع كل العلائق والشائج والأواصر بين الفئتين ، فالعلاقة المعترف والمقربها هي علاقة الدين ، والكفار ليسوا بني العم والعشيرة والإخوان ، كيف ، وقد حملوا السلاح وأرادوا تبيد شمل المسلمين ، وقد قالها أبو جهل قبل المعركة (( واللوات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال ... خذوهم أخذا )) .

**المشهد** ، النبي جالس مع جماعة من زعماء قريش ، يدعوهم ويحاول أن يقنعهم بالدخول في الإسلام ، ويأمل أن يوفق في ذلك ، ولم يغب عن الرسول أن في إسلام هؤلاء النفر من الزعماء مكسبا كبيرا للإسلام وللمسلمين ، فمن ناحية سيعز الإسلام بهم ، ومن ناحية أخرى سيفتت جبهة من جبهات المعارضة للإسلام أي أن الرسول – في تلك اللحظة – في اجتماع علي مستوى كبير من الأهمية ، ومع عدد من الزعماء والأكابر ، يدخل (( عبد الله ابن أم مكتوم )) – وكان كفيف البصر – يتلمس طريقه إلى حيث يجلس الرسول ، وعلى ما يبدو هو لم يرانهماك الرسول وحلوسه مع هؤلاء ، وقال مقاطعا : أقرني وعلمي مما علمك الله يا رسول الله .

لو كان هناك سكرتارية ، أو طاقم من المساعدين ، أو من ينظمون أعمال الرسول ، لطلب من (( عبد الله ابن أم مكتوم )) الانتظار ريثما يفرغ الرسول مما بيده ، ثم يأتي دور الرجل ، لاسيما وأن هريرة كانوا جنوسا مع الرسول قبل مقدم الرجل ، ولكن الأمر أكبر من هذا ، وليست تلك القضية التي لفت نظر الرسول إليها . فربما حدثت في نفس الرسول مقارنة بين زعماء قريش وهذا الرجل فرجحت كفة الزعماء ، وربما لم يرد الرسول أن يتحرك في نفس هؤلاء الزعماء أن يربطوا بين مكانتهم ومنزلتهم وبين هذا الأعمى ، وإنهم وهو سيصبحون سواء في الدين ، فهم يأنفون أن يتساووا مع المستويات الديق من ناس ، فأراد الرسول أن يعالج تلك النعرة من التكبر والعجب ، ريثما يدخل في الإسلام ، وهو يعلم أن

الأيام وعظمة قيم ومبادئ الإسلام كقبيلة أن تداوي وتمحو هذه النعرة والتكبر والعجب .

وربما إذا انصرف الرسول إلي الأعمى قد ينصرف عنه الزعماء ، فوقتهم وعظيم أشغالهم وانشغالهم لا تسمح أن يعطوا للرسول وقتا إضافيا حتى ينتهي وربما يتوقع الرسول أنه إذا انصرف إلى (( عبد الله ابن أم مكتوم )) سينصرف الزعماء ، وهذا ليس توقعا ، وإنما شيء مؤكد " قال صاحب المنار في ذلك : اجتهد عليه السلام في الإعراض عن الأعمى عندما جاءه وهو مشغول بدعوة أكابر قريش إلى الإسلام ، وقد لاحظت له بارقة رجاء في إيمانهم بتحدثهم معه ، فعلم عليه السلام أن إقباله على الأعمى قد ينفروهم ويقطع عليه طريق دعوته . وقد كان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام في جميع العرب . ولم يكن يعلم حينئذ أن سنة الله في البشر أن أوسم دون الأكاير المجرمين المترفين الذين يرون في إتباع غيرهم ضعة بذهاب رياستهم<sup>٩٤</sup>

وانزل الله على النبي ﷺ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ۖ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۖ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۖ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۖ فَأَن ت لَهُ تَصَدَّى ۖ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ۖ وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يُسَعَى ۖ وَهُوَ يَخْشَى ۖ فَأَن ت عَنْهُ تَلَهَّى ۖ عبس : ١-١٠ ، وأخرج الترمذي والحاكم ابن حبان عن عائشة قالت : نزلت في ابن أم مكتوم الأعمى ، قال : يا رسول الله أرشدني ! - وعند النبي ﷺ وجوه المشركين منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما - فجعل النبي يعرض عن ابن مكتوم ويقبل على غيره<sup>٩٥</sup>

إذن كل ما فعله الرسول شيء منطقي ، وتحتمه طبائع الأمور وتوجهه سياسة ونظر واعتبار الداعية لأي عقيدة في بداية أمرها .

نعم ، شيء منطقي وتحتمه طبائع الأمور وتوجهه سياسة ونظر واعتبار الداعية ، ولكن كل هذا يختلف - أو يجب أن يختلف - مع أسلوب وطريقة النبي

٩٤- اجتهاد الرسول - الشيخ عبد الجليل ثلبي - صفحة ( ١١١ )

٩٥- المصدر السابق - صفحة ( ١١١ )

التي يجب أن يسير عليها ويتبعها ، والتي أرادها الله - عز وجل - والتي تليق وتتفق مع عظمة وجلال شخصية النبي .

فلم يكن للإسلام أن يعز بدخول هؤلاء ، ولكن هم الذين يعزون .

ولم يكن للإسلام أن يشرف بإسلام هؤلاء ، ولكن هم الذين يشرفون .

ولم يكن للإسلام أن يكسب بدخول هؤلاء ولكن هم الذين يكسبون .

فما سبب حرصك على هؤلاء أيها الرسول الكريم ؟!

وما سبب تعجلك ومحاولتك أن تقنعهم ؟!

يجب أن تفرق أيها الرسول - في المعاملة - بين من تسعى إليه سعياً ، ومن

جاء يسعى إليك سعياً .

يجب أن تفرق بين من استغنى عنك وعن الدخول في الإسلام ، وبين من

أراد أن يغتنى بك وبالإسلام .

ويجب أن يختلف أسلوبك وطريقتك فلا تتصدى لمن استغنى ، ولا تنصرف

أو يشغلك شيء عن جاءك يريد الهدى .

ربما يكون هذا الرجل المنفرد الضعيف البين الشأن في نظرك ونظر الآخرين

أكرم عند الله وأثقل في ميزان الحق والعدل من كل هؤلاء الأشراف والزعماء ، وذلك

هو الميزان الذي يجب أن تحتكم إليه في تقدير الرجال ، " مع كل ذلك وجدنا الآيات

الكريمة تعاتب النبي - ﷺ - عتاباً باراً فيه رقة ، وباراً فيه شدة ، وذلك لأن

الميزان الذي أنزله الله - تعالى - للناس مع الرسل ، لكي ينظروا عليه حياتهم هو :

(( إن أكرمكم عند الله أتقاكم )) .

ولقد استجاب الرسول الكريم لهذا التوجيه ، فبني حياته كلها بعد ذلك على

هذا الميزان العادل ، ومن مظاهر ذلك : إكرامه لابن أم مكتوم وقوله له كلما رآه :

(( أهلاً بمن عاتبني فيه ربي )) وفعل - ﷺ - ما يشهده ذلك مع جميع المؤمنين

الصادقين الذين كانوا من فقراء المسلمين ، ولم يكونوا أصحاب جاه أو نفوذ أو عشيرة قوية .

لقد جعل زيد بن حارثة - وهو الغريب عن مكة والمدينة - أميرا على الجيش الإسلامي في غزوة مؤتة ، وكان في هذا الجيش عدد كبير من كبار الصحابة .  
وقال - عليه السلام - في شأن سلمان الفارسي : (( سلمان منا أهل البيت )) .  
وقال - عليه السلام - في شأن عمار بن ياسر ، عندما استأذن عليه في الدخول :  
(( ائذنوا له مرححا بالطيب المطيب )) .

وكان من مظاهر تكريمه لعبد الله بن مسعود ، أن جعله كأنه واحد من أهل بيته . فعن أبي موسى الأشعري قال : قدمت أنا وأخي من اليمن ، فمكثنا حينما وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله - عليه السلام - ممن كثرة دخوله على رسول الله ولزومهم له .

وقال - عليه السلام - لأبي بكر الصديق عندما حدث كلام بينه وبين سلمان وصهيب وبلال في شأن أبي سفيان : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك ، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه .. أن أبا سفيان أتى على سليمان وصهيب وبلال في نفر ، فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ، فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشبح قريش وسيدهم ؟ فأتى النبي - عليه السلام - فأخبره فقال : (( يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك ؟ )) فاتاهم فقال : يا إخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، ويغفر الله لك يا أخي ..<sup>٩٦</sup>

هنا الله - عز وجل - يعلم نبيه كيف يوزن الرجال ، وكيف يقدرهم ، وما معيار هذا التقدير . بعد ذلك لم يخطئ النبي قط في تقدير الرجال ، وإنما كان بيده الميزان الحق والصدق في تقدير كل من حوله وكان يمنحهم الأوسمة والنياشين التي

٩٦- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - د . محمد ميد طنطاوي - المجلد الخامس عشر - صفحة ( ٢٨٦ )

تقدرهم أحق تقدير ، وكانت تلك الأوسمة والنياشين أسماء وصفات يطلقها عليهم فهذا الصديق وهذا الفاروق ، وهذا سيف الله ، وهذا أمين الأمة ، وهذا ترجمان القرآن ، وهذا حبر الأمة ... الخ .

تعلم النبي من ربه - عز وجل - وتعلم أصحابه منه كيف يقدرون الرجال لأن أخطر شيء على أي أمة ، هو الخطأ في تقدير الرجال . وهذا الخطأ يدفع أن نضع الرجل غير المناسب في أهم وأخطر المناصب ، ولاند سار حلفاؤه - عليه السلام - على هذه السنة فكانوا يكرمون الفقراء ، فأبوا بكر - رضي عنه - أذن لصهيب في الدخول عليه قبل أن يأذن لأبي سفيان وسهيل بن عمرو وعمر رضي عنه - يقول في شأن أبي بكر (( هو سيدنا وأعتق سيدنا )) يعني بلال بن رباح " <sup>٩٧</sup>

إذن التكالب على الحياة الدنيا والحرص على ما ينفع في الدنيا - بغض النظر عن الآخرة - والابخداع بمظهر الرجال . وترك الحسب والنسب والشهرة والمصيت والغنى يؤثرون في تقديرنا وحكمنا على الرجال ... كل هذا مرفوض في موازين الإسلام .

---

٩٧- المصدر السابق - صفحة ( ٢٨٥ )